رجل العصر القديم

إيهاب عبدالعزيز "السودان"

لم تكن الرحلة سهلة، الكثير من الناس يموتون في تلك الأماكن، القرار لم يكن سهلا كذلك، لكن بعد تفكير شديد، رأينا أن نحاول في الأمر.

- لابد من دفع الثمن.

قال صديقي وهو يفتح باب السيارة الآتوس الصغيرة التي ستحملنا شمالا، وضعنا المواد الغذائية وعبوات مياه فوق سياج حديدي مثبت فوق سطح السيارة.

- صحيح.

رددتُ عليه، وأضفتُ:

- كم من الأثمان التي ندفعها كل يوم؟ ها! كم من الأثمان التي ندفعها كل يوم؟

ثم قلتُ:

- الكثير، الكثير جدا يا صديقي.

تركنا المدينة ورائنا، البنايات الشاهقة، السيارات المزدحمة، وقلوب البشر المليئة بالقلق، أصابني التردد لوقت، إتخاذ القرار لم يكن سهلا، العادة ربما فعلت فعلها، ونمط معين كنا مختنقين فيه بشدة، النهر على يسارنا، نحن على الضفة الشرقية، السهل الواسع يمين طريق الإسفلت، يحمل روحا أخرى، مختلفة، ولوهلة شعرتُ أن أرواحنا أيضا أصبحت مختلفة.

فتحتُ بعض زجاجات المياه المعدنية، وأعطيتُ صاحبي صندوق بسكويت، كان يقود السيارة بيد واحدة، وباليمنى يأكل من صندوق البسكويت، ويضعه على طبلون السيارة ليتناول جرعة من المياه المعدنية.

- هل أنت واثق من هذا الرجل؟ ماذا لو أخلف وعده؟ ماذا! المكان معزول، ولاتوجد أي فرصة للنجاة وقتها.

هز صاحبي رأسه متفهما، يأخذ جرعات قلقة من المياه المعدنية، السهل يمين الطريق متسع، منبسط بكبرياء غريب، وهنالك قطعان من المها العربية والغزلان تنظر في صمت، بعض الصقور تحلق فوقنا في دوائر منخفضة، أتسآل كيف سيكون منظر هذا العالم ونحن ننظر إليه من أعلى؟

- يجب أن تتجهز لكل الإحتمالات، هذا وارد، وارد جدا، لكن خبرني أي خيار يمكن الثقة به اليوم في العالم، أيُ خيار؟

تنفستُ بضيق، أشعلت سيجارة لي وله، النهر مثل ذراع لامعة من الفضة، تنعكس عليه الشمس لتخلق عالما منفصلا، الشعاع الذهبي يهبط من الفضاء إلى الأرض، مثل جسر سماوي منير، وقلتُ لصاحبي وأنا أنفث من الدخان:

- حينها لنصعد إلى هذا الشعاع الذي تراه أمامك.

نظر إلي ساخرا واستطرد:

- صدقني، لافائدة من دورة أخرى من الجنون، يكفي ماحدث.

- لم نكن مسئولين عما حدث.

- لكن ماهي المسئولية، ماهي؟ أعتقد أن كل أحد مسئول عن كل شيء.

ضحكتُ حتى أصابني السعال من دخان السيجار، ورددتُ عليه:

- أن تكون حالما وأن تكون مجنونا، مالفرق.

عموما، كانت الخطة تقتضي أن نتلاقى هنالك في أقصى شمال الوادي، وأن تكون كلفة الرحلة على الرجل الذي ينتظرنا هناك، وحسب ما سمعنا في

المدينة، أن لقائه ليس بالأمر السهل، هنالك مخاطرة، ومغامرة في المسألة، لكن خيار الإنتظار في المدينة أيضا لم يكن سهلا، لا يأتي كثيرا إلى المدينة، مع كون كل الناس يتحدثون عنه، بعضهم بخوف، آخرون برجاء، وآخرون بأمل غامض، قبلنا ذهب الكثيرون، وفي الحقيقة ليست هنالك أخبار عنهم، لكن مالذي سننتظره في المدينة؟

حوالي ثلاث ساعات كان وقت الرحلة، الوادي عميق جدا، ويطل بانحدار هائل نحو الشرق، لكن الطريق غربا ممهد، وفي اتجاه الشمال تظهر سلاسل من الجبال الكبيرة، العالية، مثل عمالقة تتصارع في حلبة ضخمة، قمم الجبال تلتقي مع حواف السحب، الأفق معتم، وبدا الغمام مثل مدن عملاقة يُصعد إليها بسلم من الأحلام.

توقفنا بالسيارة في مدخل الوادي الشرقي، يقال أنه يأتي دوما من المدخل الغربي، وفي الحقيقة رغم أن الكثير من الناس التقوا به، لكن أحدا لم يستطع أن يحدد ملامحه بدقة، مما جعل الأمر غريبا، يحكي الناس حكايات كثيرة هناك، لكن الحكاية الوحيدة المهمة أنه يُمكِّنك من أن تصعد سلم الأحلام الذي يجلبه معه، وهناك ثمن نظير هذا السلم اختلفت الأقاويل حوله، يقول البعض أن السلم قديم جدا، وأنه سابق لعصرنا بعصور كثيرة، آخرون يقولون أن

السلم خداع بصري من رجل الوادي، أنا وصديقي رأينا المحاولة على كل حال.

انتظرنا لوقت، بعد ساعة ونصف تقريبا، اقتربت دوائر الصقور منا أكثر، وهبت رياح غربية قوية، ولاحظنا حركة للزواحف والعقارب مبتعدة نحو أطراف الوادي الذي تبعثرت فيه نبتات جافة من الأكاسيا والسرو الصحراوي، الأخير كان يحمل زهرة فواحة، حُلوة العبير.

وقف أمامنا، صوته عميق مثل قرون غابرة من عصور بعيدة، قبلنا دفع الثمن، في العالم لم نجد لنا خيارا آخر، الغمام الأسود يقترب، الشمس تذهب نحو وجهة غير واضحة، وبعض عصافير الدُوري الصغيرة تسقط ميتة، والدم يسيل من مناقِرها، وبعدها كان الثمن بحجم كل آلامنا التي لانعرفها.

رأينا أمامنا عالما آخر، لايشبه المكان الذي جئنا منه، والأغرب أن الأشياء فيه كلها قابلة للتشكل، كأنها كينونات مرنة، رأينا الأفكار، وأحساسيس قديمة، ورأينا ذكريات كانت متوارية في أمكنة غامضة من ذاكرتنا، بعدها قال لنا:

-هنالك ثمن آخر.

بدت على صديقي الدهشة، لكن روعة المنظر جعلتنا نعيد النظر، المشهد كان رائعا جدا، وللحظة أوشكتُ على البكاء، مرت فترة من الصمت ثم قلتُ:

-لكن ليس هذا مايقوله الناس في المدينة.

لا أدري بدا كيانه غريبا جدا، ولوهلة كأن الصوت يأتي من مكان آخر، وأن الشيء الذي أمامنا هو منطقة ما بين الوجود والعدم، قال:

-لا قيمة لما يقوله الناس هناك.

ثم يردف وقد هبطت صقور عدة على منكبيه:

-هل يستحق الأمر؟

لم نستطع الإجابة فورا، ثم قال صديقي وقد كانت عيناه لامعتان من الدهشة:

-في الحقيقة أكثر من أن يستحق.

ويصمتْ ثم يقول:

-يمكن أن نضحي من أجله.

-المرة القادمة ستكون مختلفة.

-كيف، كيف؟

أردفتُ بلهفة باكية، صوته غريب، عميق، مليئة بالسكينة، ومليء بالطغيان،

يضيف، صقر آخر يهبط على منكبه، صقور سوداء، عيناها مثل يواقيت شديدة الحمرة:

-هناك أمور لايمكن أن توصف، أحيانا العالم لايمكنه استيعابها.

قلنا بصوت واحد متهدج:

-نحن على استعداد لدفع أي ثمن، وكل الأثمان، على الإستعداد لكل شيء.

هبت رياح أخرى أقوى من الأولى، وبدا وكأن أرض الوادي تبدأ في التشقق، وأحسسنا كما المرة الأولى أن شيئا يخرج من قلوبنا باتجاه الرجل، مثل خيط دقيق من ضوء، لم نعره اهتماما، كانت اللذة أعلى هذه المرة، وكأن العالم أصبح مضمارا ورديا من أحلامنا الخائفة، والهاربة، رأينا بعض الذين كنا نعرفهم في المدينة، والغريب أن أشكالهم بدت شاحبة، وجلودهم كأنها مشققة وميتة، الأشياء حولنا كانت فوق الإحتمال من جمال المشهد، وكان صديقي يبكي بكاء حارا جدا، شاركته البكاء، وللحظة بدا لي كأنني أرتفع فوق أرض الوادي، في ذات الوقت كنت أرى نفسي وصديقي في ذات المكان على الأرض، والأغرب أن الصقور كانت واقفة على شيء غير ظاهر الملامح أو الكتلة، المهم أنها واقفة، وعيونها حادة كأنها مشارط طبية جراحية، بدأنا الرحلة.

اليوم نقف فوق أرض حجرية غريبة، مر وقت طويل، تغيرت فيه الأشياء، مازالت مدهشة، لكن كان هنالك إحساس غريب في أعماقنا، غريب جدا، ومن غير الممكن أن نصرف أنفسنا عن التفكير فيه، على كل حال، دفعنا الثمن، وليس هناك فرصة للتراجع أو تغيير قرار اتخذناه بكامل قوانا العقلية، بعدنا جاء آخرون، الشيء الوحيد الذي كان باقيا من حياتي الآخرى هو إحساس غريب بأني يوما بالأصل لم أكن موجودا.

***